



منذ ستين عاماً – أو تزيد – كتب المحامي الفقيه الشهيد عبد القادر عودة كتابه الذي سماه (الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه). وفيه حملَ مسؤولية إضعافِ الإسلام والإساءةِ إليه، لأنَّه بجهلِهم، ولعلَّهم بعجزهم. المهم أن تفكير المؤلف وتشخيصه للمشكلة، اتجه إلى الذات، وليس إلى الآخرين ومؤامراتهم، وإن كان هذا لا ينفي وجود مؤامرات ومتآمرين، ضد الإسلام والمسلمين.

المهم هو الاعتراف بأن ما نحن فيه من تخلف وضعف ومعاناة، إنما هو منا أولاً وأساساً، كما قال الله تعالى: {أَوْلَمَا أَصَابَتُكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ فُوْ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران : 165]، وقال: {مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ} [النساء : 79]

اليوم الإسلاميون أصبحوا لهم مشاركات ومسؤوليات في مؤسسات الدولة والحكم. بل وصلوا إلى رئاسة الجمهورية في مصر، وقبلها في السودان، وإلى رئاسة الحكومة في تونس والمغرب، والبقية آتية لا ريب فيها، بإذن الله تعالى.

لكنهم قرباً سيدأون في دفع الحساب عن نتائج مشاركتهم وأدائهم فيما تحملوه من مسؤوليات. فهل يعملون بقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا...؟"

إذا تفهم الإسلاميون – أو غيرهم – قوله عمر هذه وعملوا بها، فسيجلسون يومياً وأسبوعياً لمحاسبة أنفسهم ومحاسبة بعضهم، بشوق وتقبل، لا بضيق وتمر. وسيكونون كما جاء في الحديث النبوي الشريف «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

إن المشكلة التي تجرف الناس عموماً، والسياسيين خصوصاً، نحو منحدر التقصير والتبرير، هي تركهم للأمور تمضي بلا محاسبة يومية، وبلا توبة يومية. والتوبة هنا تشمل كل تدارك وتصحيح.

فمرور أيام أو أسابيع بلا محاسبة ولا توبة، وبدون تدارك ولا تصحيح، يؤدي إلى التراكم والانجراف التدريجي، وهو ما يثقل كاهل صاحبه يجعل قيامه بالتدارك والتصحيح أصعب وأثقل مرة بعد مرة، ويكون البديلُ السهلُ هو الانزلاق في مسلسل التبرير والدفاع عن النفس، واتهام المناوئين والمتآمرين ومerde الشياطين...

في المغرب على سبيل المثال، كان رئيس الحكومة وعدداً من وزرائه يتصرفون ويتكلمون في البداية وما قبل البداية بدرجة

عالية من الشفافية، ويدافعون عن هذه الشفافية، ووجدوا لهم في ذلك سندًا قويًا من الدستور، ولقوا من الشعب كل ترحاب وإعجاب. ثم سرعان ما بدأت العتمة تزحف على أعمالهم وأقوالهم، وبدأ الدفاع عن العتمة والضبابية يحل محل الوضوح والشفافية.

ومعلوم أن العتمة – في اللغة – هي بداية الظلام وأول الليل، والليل أجلب للويل. وقد كره النبي صلى الله عليه وسلم تسمية الأعراب لصلاة العشاء باسم صلاة العتمة، وقال: (لا تغلبكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء، فإنها في كتاب الله العشاء)، فالصلوة نور وضياء، فلا يليق تسميتها بالعتمة.

والتعيم مَدعاة للشك والريبة، خاصة إذا تكرر واستمر. فإذا جاء ما يوضح ويضيء ويُطمئن فذاك، وإلا تمكنت الشكوك، وتزعزعت الثقة، وتأكدت المخاوف. فمن عَمِّ فإِنَّمَا يُعْتَمُ على نفسه، ويثير الشبهة في تصرفه. وفي الحديث الشريف: «البر حُسنُ الْخُلُقِ، وَإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صِدْرِكَ وَكَرْهَتْ أَنْ يَطْلَمْ عَلَيْهِ النَّاسُ».

وتعلمون عشرة المسلمين قصة رسول الله وزوجته صفية، حين جاءته ليلاً وهو معتكف في المسجد، فلما أرادت الانصراف قام يمشي معها، "فلقيه رجال من الأنصار، فنظرًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أجازاً (أي مضياً). فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: تعالى إنها صفية بنت حُبَيْرٍ. قالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإنني خشيت أن يلقى في أنفسكم شيئاً" (صحيح البخاري).

إن رسول الله صلي الله عليه وسلم حَوَّلَ الظلامَ إِلَى نورٍ، وأَحْلَ الشَّفَافِيَّةَ مَحْلَ الْعَتمَةِ.

من الإسلاميين من يقولون: هذه فرصة تاريخية طالما انتظرناها وانتظرتها شعوبنا، ونحن لا نأمن أن تضيع هذه الفرصة وتضيع معها فرصة الإصلاح الحقيقي الذي نحمل رايته وأمانته، وفي ذلك ما فيه من خسارة للإسلام وللمشروع الإسلامي في هذا العصر.

ولذلك لا بد لنا من المساييس والمكاييس لك، نحافظ على هذه الفرصة ونستثمرها، خدمة للإسلام وال المسلمين.

و قبل سنوات تذكرة مع قيادي من الحزب الحاكم في السودان، وقلت له: أليس التراكي على حق حين يدعوكم ويدعو العسكريين خاصة - و منهم الرئيس البشير - إلى التخلي عن الحكم، و تنظيم انتخابات نزيهة بدون عسكر؟ قال: يا أخي نحن نخشى على المشروع الإسلامي، والانتخابات عندنا، إن تركت على عواهنها، في بلد يسوده الجهل والفقر، و تتحكم فيه القبلية والعشائرية والطرق الصوفية، و يخترقه النفوذ الأجنبي طولاً و عرضاً، لا نضمن ما الذي ستتأتينا به، فلا بد من الإعداد الكافي قبل المغامرة بمستقبل المشروع الذي نحن مؤمنون عليه.

قلت له: إن أكبر خدمة تؤدونها للإسلام وللمشروع الإسلامي في السودان والعالم الإسلامي كله، هو أن تنظموا انتخابات حرة نزيهة على جميع المستويات، بما فيها رئاسة الجمهورية، وألا يترشح فيها عمر البشير... فهذه هي الخدمة التاريخية التي يمكنكم تقديمها للإسلاميين عبر العالم.

الإسلاميون يخافون على الإسلام وعلى المشروع الإسلامي، وأنا أخاف من خوفهم هذا، لأنه يضر من حيث يريدون النفع، ومن الحب ما قتانا.

